

محاضرة: صفات الأنبياء والرُّسل – العصمة: القسم الأول

مقدمة:

جَبَّ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَ النَّاسِ عَلَى مَوَاهِبٍ مُعِينَةٍ كَالْقُوَّةِ وَالشِّعْرِ وَالفنونِ، ... يَتَفَوَّقُ بِهَا عَلَى الْآخِرِينَ، وَوَهَبَ الْأَنْبِيَاءَ وَالرُّسُلَ الْكَفَاعةَ الْعَالِيَّةَ لِقِيَادَةِ النَّاسِ وَهُدَائِهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ لِذَلِكَ امْتَازُوا بِصَفَاتٍ فِيهَا جَمِيعُ خَصَالِ الْخَيْرِ، الَّتِي تَقْتَضِيهَا طَبِيعَةُ وَظِيفَتِهِمْ بِالتَّبْلِيغِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، بَعِيدَةٌ عَنِ الْنَّاقِصِ، الَّتِي لَا تُلِيقُ بِهِمْ، مَمَّا لَا يَسْتَقِيمُ مَعَ تَلْكَ الْوَظِيفَةِ.

وَمِنْ أَبْرَزِ مَا يَذَكُّرُهُ الْعُلَمَاءُ فِي هَذَا الْمَقَامِ خَمْسَ صَفَاتٍ، هِيَ: الْعِصْمَةُ، وَالتَّبْلِيغُ، وَالْفَطَانَةُ، وَالذِّكْرَةُ، وَالسَّلَامَةُ مِنِ الْنَّاقِصِ، وَلَا يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ هِيَ صَفَاتُهُمْ فَقَطْ، بَلْ هَذِهِ أَمْهَاتُهُمْ، وَسَنَقْصُرُ فِي دراستنا عَلَى صَفَةِ الْعِصْمَةِ، لِأَنَّهَا أَسَاسُ هَذِهِ الصَّفَاتِ.

﴿الْعِصْمَةُ لُغَةً وَاصْطِلَاحًا﴾

أ- العِصْمَةُ لُغَةً:

الْعِصْمَةُ فِي الْلُّغَةِ، تَعْنِي: الْحَفْظَ.

ب- العِصْمَةُ اصطلاحًا^(١):

عَرَّفَ الْعُلَمَاءُ الْعِصْمَةَ فِي الْاَصْطِلَاحِ بِتَعْرِيفَاتٍ عَدَّةٍ، مِنْهَا: هِيَ أَنْ لَا يَخْلُقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ذَنْبًاً.

وَعُرِّفَتُ الْعِصْمَةُ فِي الْاَصْطِلَاحِ أَيْضًاً، بِأَنَّهَا: لَطْفٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، يَحْمِلُهُ^(٢) عَلَى فَعْلِ الْخَيْرِ، وَيَرْجُرُهُ عَنْ فَعْلِ الشَّرِّ، مَعَ بَقَاءِ الْاَخْتِيَارِ، تَحْقِيقًا لِلابْتِلاءِ.

ج- معنى الكبيرة والصغرى:

لِمَّا كَانَتْ عِصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ مَرْتَبَةً ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِالذَّنْبِ، مِنْ حِلْمٍ خَلُوِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْهُ، كَانَ لَابْدَّ مِنْ بَيَانِ وَاقْعِ الذَّنْبِ، فَهُوَ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكَبَائِرِ أَوْ مِنَ الصَّغَائِرِ.

^(١) التعريفان كلاهما مطلوب.

^(٢) أي: يحمل النبي على فعل الخير، ... الخ

١- **الكبير**: عَرَفَ العُمَّاءُ الْكَبَائِرَ بِتَعْرِيفَاتٍ مُخْتَلِفةً، مِنْ أَبْرَزِهَا: إِنَّ الْكَبَائِرَ، هِيَ: مَا تَرَبَّى عَلَيْهَا حَدٌّ، أَوْ
تَوَعَّدَ عَلَيْهِ بِالنَّارِ، أَوْ الْلَّعْنَةِ، أَوْ الغَضْبِ.

وَالْكَبَائِرَ إِمَّا كُفُّرٌ، أَوْ كَذَّابٌ، أَوْ غَيْرُهُمَا مِنْ الذَّنَوْبِ الْكَبِيرَةِ الْأُخْرَى.

٢- **أَمَّا الصَّغَائِرُ**، فَهِيَ: مَا لَيْسَ فِيهَا حَدٌّ فِي الدُّنْيَا، وَلَا وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ.

وَسِيَّكُونُ الْحَدِيثُ عَنِ الْعَصْمَةِ فِي نَوْعَيْنِ: الْأُولَى: عَصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكَبَائِرِ، وَالثَّانِي: عَصْمَةُ الْأَنْبِيَاءِ
مِنَ الصَّغَائِرِ.

النوع الأول: عصمة الأنبياء من الكبائر:

وَفِيمَا يَأْتِي تَفْصِيلُ عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ مِنَ الْكَبَائِرِ: الْكُفُّرُ، وَالْكَذَّابُ، وَغَيْرُهُمَا.
أولاًً: العصمة من الكفر:

اتَّقُ جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُعَصُّومُونَ مِنَ الْكُفُّرِ قَبْلَ الْوَحْيِ وَبَعْدَهُ، وَلَا يَجُوزُ
الْكُفُّرُ عَلَيْهِمْ فِي حَالٍ صَغِيرٍ تَبَعًا لِلْوَالِدَيْنِ؛ لِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِاللهِ، عَارِفُونَ بِهِ حَقِيقَةً، فَلَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ
الْكُفُّرِ تَبَعًا لِكُفُّرِ الْوَالِدَيْنِ.

ثانيًا: العصمة من الكذب:

فَبَلَّ بَيَانُ عَصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْكَذَّابِ، لَابْدَّ مِنْ بَيَانِ مَعْنَى الصَّدْقِ وَالْكَذَّابِ.

أ- معنى الصدق والكذب:

الصدق، هو: مطابقة حكم الخبر للواقع، وأنواعه بالنسبة للأنبياء ثلاثة:

١- الصدق في دعوى الرسالة.

٢- الصدق في ما يبلغونه عن الله عز وجل إلى الناس من الأحكام الشرعية.

٣- الصدق في جميع ما ينطق به مما يتعلق بأمور الدنيا.

وَضَدُّ الصَّدْقِ: الْكَذَّابُ، وَهُوَ: عَدَمُ مطابقةِ حِكْمَةِ الْخَبَرِ لِلْوَاقِعِ.

ب- عصمة الأنبياء عليهم السلام من الكذب:

يستحيل صدور الكذب عن الأنبياء فيما دلَّ المعجز القاطع على صدقهم فيه، كدعوى الرسالة، وما يبلغونه عن الله تعالى إلى الخلائق، على سبيل العمد بإجماع أهل الملل والشريائع كلها، ويستحيل صدوره على سبيل السهو والنسيان عند أكثر الأئمة الأعلام، وهو المعتمد على ما أفاده المحققون، وكذلك هم معصومون من الكذب فيما يتعلق بغير الإرسال والتبلیغ.

ج- الدليل العقلي على صدق الأنبياء وعصمتهم من الكذب:

- ١- لو جاز عليهم الكذب والافتراء، للزم الكذب في خبره تعالى، وهو محال؛ لأنَّه تعالى صدَّقهم بالمعجزات.
- ٢- الكذب معصية، وهم معصومون منها.
- ٣- لو كذبوا، وعرف الناس منهم ذلك، لانتفت فائدة الرسالة.

د- أمَّا الدليل النقلي على صدقهم:

- ١- قوله تعالى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى» [النجم: ٤-٣].
- ٢- قوله تعالى: «وَصَدَّقَ الْمُرْسَلُونَ» [يس: ٥٢].
- ٣- قوله تعالى: «وَلَوْ تَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۖ لَاخْدُنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينِ ۖ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» [الحاقة: ٤٤-٤٧].
- ٤- وفي الحديث، قالوا: ((يا رسول الله، إنَّكَ تُداعِنُنا؟ قال: لا أقولُ إلَّا حَقًّا)).

ه- ما ظاهره وقوع الكذب من الأنبياء:

أمَّا ما ظاهره وقوع الكذب من الأنبياء، كما في واقعة إبراهيم الخليل عليه السلام حين كسر الأصنام، وأبقي كثيرها فقط، فلما سئل: «قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتَّا يَا إِبْرَاهِيمَ ۖ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَيْرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ» [الأنبياء: ٦٢-٦٣]، فإنه يقول بأنَّ قصده عليه السلام التهديد والتبيكية والاستهزاء، لأنَّه لم يكن عند الأصنام غيره، فما فائدة قولهم من فعل هذا؟!

وقيل معناه: سلوكهم إن نطقوا فإنَّهم يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل، وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنَّه هو الفاعل، فقوله هذا من المعارض، وفي المعارض مندوحة عن الكذب، وهو الذي صححه القرطبي، وقيل غيره.

ثالثاً: العصمة من الكبائر الأخرى:^(٣)

ونبين هنا حكم صدور غير الكفر والكذب من الكبائر عنهم عمداً أو سهواً، قبلبعثة أو بعدها.

أ- الكبائر المنفرة:

الأنبياء عليهم السلام، معصومون من الكبائر المنفرة، كعهر الأمهات والفجور في الآباء، مطلقاً قبل البعثة وبعدها، عمداً وسهواً.

ب- الكبائر الأخرى (غير المنفرة):

أمما الكبائر الأخرى (غير المنفرة)، وفيها التفصيل الآتي:

١- وقوع الكبائر الأخرى (غير المنفرة) قبل البعثة:

فذهب أكثر الأشاعرة، وجمع من المعتزلة، والإباضية، إلى أنَّه لا يمتنع صدورها عنهم قبل البعثة، مستدلين بأنَّه لا دلالة للمعجزة على امتلاع الكبيرة قبل البعثة، وهذا لا يعني أنَّها وقعت من كلنبي منهم فعلاً، بل المراد أنَّ وقوعها منهم قبل البعثة لا يتعارض مع دلالة المعجزة على صدقهم.

بينما ذهب أكثر المعتزلة إلى أنَّه: يمتنع صدور الكبيرة منهم وإن كانت قبل البعثة؛ لأنَّ الكبيرة تُوجب النفرة عن ارتكابها، وهي تمنع عن اتباعه، فتفوت مصلحة البعثة.

٢- وقوع الكبائر الأخرى (غير المنفرة) بعد البعثة:

الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكبائر عمداً، وهو قول الجمهور من المحققين والأئمة، وكذلك هم معصومون منها سهواً أو على سبيل الخطأ في التأويل، وهذا الرأي هو المختار.

بينما ذهب الزيدية والأمامية إلى المنع من وقوع الكبائر منهم مطلقاً، قبل البعثة وبعدها، عمداً وسهواً.

^(٣) يُحفظ ما في الخلاصة فقط.

النوع الثاني: عصمة الأنبياء من الصغائر^(٤)

قسم العلماء الصغائر إلى نوعين: صغار خسنة، وصغار أخرى.

أولاً: صغار الخسنة:

وهي الصغار التي تلحق فاعلها بالأرذل، كسرقة حبة، أو لقمة، والتطفيف بتمرة. والأنبياء معصومون منها، قبل البعثة وبعدها، فلا تصدر عنهم أصلاً، لا عمداً ولا سهواً بالاتفاق.

ثانياً: الصغار الأخرى:

أي التي لا تُصنف على أنها من الأمور الخسيسة، وفيها التفصيل الآتي:

١- وقوع الصغار الأخرى من الأنبياء قبل البعثة:

والأنبياء عليهم السلام غير معصومين منها، قبل البعثة عمداً، وسهواً.

٢- وقوع الصغار الأخرى من الأنبياء بعد البعثة:

أما بعد البعثة فهم معصومون منها عمداً، ولكن تجوز سهواً، لكن لا يصررون عليها، ولا يقررون من الله تعالى عليها، بل يتباهون فـيَتَبَاهُونَ، وعليه المحققون من المحدثين والسلف الصالح، لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، إِذَا نَسِيْتُ فَذَكَرُونِي)), وهذا قول الأشاعرة.

وذهب المعتزلة والزيدية إلى تجويز الصغار على الأنبياء، إما على سبيل السهو على قول بعضهم، أو على سبيل التأويل على قول قوم منهم، أو لأنها تقع محبيطة بكثرة ثوابهم.

فعصمة الأنبياء عند المعتزلة والزيدية هي عن الكبائر عمداً أو سهواً، والصغرى عندهم لا تخل بالعصمة.

بينما ذهب إلى الإمامية إلى وجوب عصمتهم عن الذنوب كلها صغيرة أو كبيرة عمداً وسهواً، قبل البعثة وبعدها.

^(٤) يُحفظ ما في الخلاصة فقط.

خلاصة محاضرة: صفات الرُّسل والأنبياء – العصمة القسم الأول

- يتتصف الأنبياء عليهم السلام بجميع خصال الخير، التي تقتضيها طبيعة وظيفتهم بالتبليغ عن الله تعالى، بعيدة عن جميع الناقص، التي لا تليق بهم، مما لا يستقيم مع تلك الوظيفة.
- أبرز ما ذكره العلماء في هذا المقام خمس صفات، هي: العصمة، والتَّبْلِيغ، والفطانة، والذكرة، والسلامة من الناقص.
- العصمة في اللُّغَةِ، تعني: الحفظ. أمّا في الاصطلاح، فهي: أن لا يخلق الله تعالى فيهم ذنباً، وأيضاً، هي: لطف من الله تعالى، يحمله على فعل الخير، ويَرْجُرهُ عن فعل الشر، مع بقاء الاختيار، تحقيقاً للابتلاء.
- الكبائر، هي: ما ترتب عليها حدٌّ، أو تَوَعَّدُ عليه بالنار، أو اللعنة، أو الغضب، أمّا الصغار، فهي: ما ليس فيها حدٌّ في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة.
- الأنبياء عليهم السلام معصومون من كبائر: الكفر، والكذب، مطلقاً: قبل البعثة وبعدها، عمداً وسهوأً، أمّا غيرهما من الكبائر فهم معصومون من الكبائر بعد البعثة عمداً وسهوأً، أمّا قبل البعثة فمن العلماء من أطلق القول بالعصمة أيضاً، ومنهم من خصّها بالكبائر المنفرة.
- الصغار نوعان: صغار الخسَّة، والأنبياء معصومون منها، قبل البعثة وبعدها، فلا تصدر عنهم أصلاً، لا عمداً ولا سهوأً بالاتفاق.
- والصغار الأخرى، الأنبياء عليهم السلام غير معصومين منها، قبل البعثة عمداً، وسهوأً، أمّا بعد البعثة فهم معصومون منها عمداً، وتجوز سهوأً، لكن لا يُصِرُّون عليها، ولا يُقْرُّون من الله تعالى عليها، بل **يُتَبَّهُون فَيُتَبَّهُون**.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلَّى الله وسَلَّمَ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين